مارك شطيرن (*)

النيوليبرالية، الاحتلال، وحيّزات التماس الجديدة

الفلسطينيون والإسرائيليون في المجمّعات التجارية في القدس الغربية

مقدمة

«أخي يذهب كل أسبوع إلى المجمّع التجاري. وهو يشعر بالارتياح أكثر مني. فهو يعرف اللغة، ويشعر أنه حرّ. هؤلاء أناس وُلدوا في ظلّ السيادة الإسرائيلية. لا يعرفون المشاعر الوطنية؛ لم يعيشوا في حالة وطنية من شأنها أن تصوغ أفكارهم بخصوص الوطنية. وهم لا يرون أي تناقض بين طموحاتهم الوطنية وذهابهم إلى مجمّع تجاري إسرائيلي. لديهم حاجتهم، ويذهبون إلى هناك».

(مقابلة مع أ. هـ. من القدس الشرقية)

تعتبر القدس حالة متطرفة في تعدّد الاستقطاب في حيّز مدينيّ، حالة تشمل صراعات قومية ودينية وثقافية في الوقت نفسه. وتتميز القدس بنماذج متجذرة من الفصل الحيّزي وسياسة التخطيط المتحيّز التي تعيد إنتاج علاقات قوى غير متكافئة بشكل فاضح بين الأغلبية اليهودية والأقلية العربية، تُفاقم الصراع المتفجّر بقوة، والذي تسود انفجاراته الدورية حياة المدينة. ولكن في الوقت نفسه خضعت القدس لإصلاحات نيوليبرالية مهمّة أعادت تشكيل سياسات الإدارة البلدية والاقتصاد المدينيّ. شهدت القدس في العقدين الأخيرين انخفاضًا في الخدمات البلدية وتتجيرًا في الحياة المدنية وتصعيدًا في الاستقطاب الاجتماعي والحيّزي بين الجماعات والقطاعات الاجتماعية. على صعيد التطوير المدينيّ جرى بناء مجمّعات مخصخصة في مركز القدس الغربية، وفرت مجمعات من الشقق الفاخرة والمراكز التجارية، تجوبها شركات أمن خاصة، وهي آخذة في احتلال المزيد من المساحات. وقد أنجزت سياسات التخطيط الجديدة هذه شركات خاصة – عامّة؛

* أستاذ في قسم السياسة والحكم – «جامعة بن غوريون»، بئر السبع.

لقد عرف الصيف الماضي مرحلة جديدة من الصراع المديني في القدس؛ وظهرت موجة من العنف المتبادل والخوف وانعدام الثقة كآثار جانبية للعملية العسكرية الإسرائيلية في قطاع غزة. ولكن، وفي الوقت نفسه الذي كانت فيه «تشتعل» المدينة، وكان المقدسيون في الجانبين ينامون في ظلّ أصوات إطلاق المدافع وصفارات الإنذار، كان روّاد المجمّعات التجارية في القدس الغربية، وخاصة في حي ماميلا (مأمن الله) وليس فيه فقط، يدخلون عالمًا مختلفًا تمامًا. وحتى في فترة أوج العنف في المدينة، ظلّ الفلسطينيون «يعبرون الحدود» ليتسوّقوا، وكأن المدينة مختلطة وموحّدة، وليست مقسّمة أو منفصلة.

وعزّز هذه العملية رئيس بلدية القدس، نير بركات، منذ تولّيه السلطة عام ٢٠٠٨؛ وهو مليونير راكم ثروته من أعماله في الصناعات التكنولوجية. وبناءً على فرضية أن النيوليبرالية تعيد صياغة المدينة من حيث مظاهر الحياة والسياسة كلّها تقريبًا، فهي أيضًا تغيّر ظروف وشروط الصراع القومي بين الإسرائيليين والفلسطينيين حول الحيّز المدينيّ في المدينة وكذلك أنماط التفاعل اليومية بين الطرفين.

لقد عرف الصيف الماضي مرحلة جديدة من الصراع المديني في القدس؛ وظهرت موجة من العنف المتبادل والخوف وانعدام الثقة كآثار جانبية للعملية العسكرية الإسرائيلية في قطاع غزة. ولكن، وفي الوقت نفسه الذي كانت فيه «تشتعل» المدينة، وكان المقدسيون في الجانبين ينامون في ظلّ أصوات إطلاق المدافع وصفارات الإنذار، كان روّاد المجمّعات التجارية في القدس الغربية، وخاصة في حي ماميلا (مأمن الله) وليس فيه فقط، يدخلون عالمًا مختلفًا تمامًا. وحتى في فترة أوج العنف في المدينة، ظلّ الفلسطينيون «يعبرون الحدود» ليتسوّقوا، وكأن المدينة مختلطة وموحّدة، وليست مقسّمة أو منفصلة. هذه الظاهرة تشكّل منحىً متناميًا يتعلق بالتفاعلات والمواجهات اليومية بين الفلسطينيين والإسرائيليين في القدس الغربية والأحياء اليهودية في القدس الشرقية. وفي أيام معيّنة يشكل الفلسطينيون نسبة تصل إلى ٢٥٪ من روّاد المجمّعات التجارية في حيّ ماميلا وحيّ المالحة. حيّزات التماس المميّزة هذه، تبعث على التساؤل: كيف تؤثر قوى السوق واستهلاكيّة مابعد الحداثة والعولمة على الصراع السياسي في حيّزات مدينية؟

استنادًا إلى دراسة مفصّلة لموقعين في القدس، سوف أحاول ان أبرهن أنه في الوقت الذي تولّد فيه الإصلاحات النيوليبرالية مبنى القوة وتعزّزه أيضًا، فإن هذه الإصلاحات تخلق حيّزات تماس تقوّض بُنية العلاقات الراهنة بين الجماعات. التعايش في الحيّزات العامّة بين الإسرائيليين والفلسطينيين يتحدّى منطق الفصل، ومن شأنه أن يؤدّي إلى تحوّلات في الوعي والأحاسيس المتبادلة.

النظرية

يقوم المبنى النظري لبحثي على ثلاثة مجالات بحثيّة: البحث الجغرافي الخاص بالمدن المقسّمة؛ البحث الخاص بصعود المدينة النيوليبرالية؛ والدراسات المعاصرة التي تركز على جغرافية التماس.

بحث موضوع المدن المتنازعة قوميًا (والمعروفة أيضًا بالمدن المقسّمة) هو الإطار الرئيسي لهذه الورقة. يبيّن بولين (١٩٩٩، ٢٠٠٩) أن سياسة التخطيط المتحيّز تعزز السيطرة الحيّزية اليهودية في القدس. المواد الضخمة التي جمعها بول (١٩٩٦، ١٩٩٩) وبيتش (٢٠٠٠) حول نزعات الفصل الخاصة بالمدن المتنازعة تُسهم في فهمنا للقوى الطوعية والإلزامية التي تُبقي على الفصل طويل الأمد بين الجماعات المتجاورة. يفتحئيل ويعقوبي (٢٠٠٢أ، ٢٠٠٢ب، ٢٠٠٤) ودمبر (١٩٩٧) يصفون كيف يشكّل تفاوُت علاقات القوى بين الإسرائيليين والفلسطينيين في القدس واقعًا تسوده اللاّمساواة القاسية والتمييز الشامل.

تعريف هارفي للمدينة النيوليبرالية، وفهمه لـ«الحق في المدينة» (٢٠٠٥، ٢٠١٢) يشكّلان الإطار الموجّه لفهم القوى الثقافية والاقتصادية التي شكّلت واقع المدن في العقدين الأخيرين. بحث هارفي، ومعه بحث ساسِن (١٩٩٩) وسميث (٢٠٠٢)، يشكّل مساهمة كبيرة في فهمنا للعمليات الاقتصادية الكبيرة المعاصرة وتجلياتها المدينية.

أمّا المقاربة الثالثة فمرجعها ظهور الأبحاث حول جغرافيات التماس. تؤكد هذه المقاربة المفهوم المدينيّ للمدينة المتعددة الثقافات؛ ويُفترَض أنه حيّز مدينيّ يطوّر التماس مع الاختلاف.

عبور «الحدود» من أجل التسوق!

تستند هذه المقاربة أولاً إلى فرضية الاتصال المباشر، وتركز على إمكانيات التفاعل اليومي باعتباره وسيلة لمعرفة الاختلاف (ألبورت، ١٩٦٠)، وثانيًا إلى فكرة تقول بأن التماس مع الآخر يُترجَم إلى اعتراف متبادَل واحترام متبادَل.

الميثودولوجيا – منهج البحث

منهج البحث في هذه الورقة يدمج الفحص الكمّي مع التفسير الكيفي. ومن أجل فهم العمليات التفاعلية التي تحدث في القدس، قمت بإجراء بحث ميداني مديني – جغرافي. شمل الفحص ١٢١ مقابلة، ١٩ مقابلة معمّقة، وعدّة مشاهدات ميدانية في مجمّعين تجاريين في القدس، هما مجمّع المالحة التجاري في القدس الغربية ومجمّع ماميلا الواقع على خط الالتحام بين القدس الشرقية والقدس الغربية. شملت المقابلة ثلاثة أسئلة قصيرة تتعلق بالشعور بالأمن لدى روّاد المجمّع، وموقفهم تجاه التماس بالجماعة الخصم. وقد دعتني نتائج البحث الميداني إلى فحص كيف ولماذا يعبُر الفلسطينيون الحدود إلى «منطقة أجنبية»، والطريقة التي يتعامل بها الإسرائيليون مع وجود الفلسطينيين هناك. وقد استخدمت هذه النتائج من أجل تحديد طبيعة التفاعل الذي يجري في كل منطقة جرى البحث حولها.

النتائج

«أجيء كثيرًا إلى المالحة وإلى مركز المدينة وإلى كل مكان أريد القدوم إليه. لا أبالي التفتيش الأمني. في القدس الغربية كل الأماكن مفتوحة حتى ساعة متأخرة. أنا أذهب مع الأصدقاء بهدف الترفيه والتسلية. في كل مكان أشعر كأني في البيت. الأرض يملكها الشعب الذي يسكن فيها. من يزعجني في القدس الغربية هم العنصريون، وهم كثيرون في كل مكان، خاصة في القدس. ولكنني لست خائفًا. وإذا ما كنت رجلاً، فأينما ذهبت كن رجلاً!».

(مقابلة مع زياد، من الحي الإسلامي).

المالحة وماميلا هما المجمّعان التجاريان الأكثر شعبية في القدس. نجاحهما التجاري وشعبيّتهما بين عموم الناس يعودان إلى أسباب مختلفة ولكن متشابهة. مجمّع المالحة مريح والوصول إليه سهل، ومجمّع ماميلا بهيج ومزوّد بأسباب الترف ويقع بالقرب من أماكن كثيرة جذّابة للسياح. الزبائن الفلسطينيون الذين يفدون إلى هذين المجمّعين ينجذبون إلى هناك لأسباب عملية مشابهة: توفر أماكن وقوف السيارات، مكيّفات، وتوفر دكاكين متنوعة تحت «سقف» واحد. وهم مثل غالبية الزبائن الإسرائيليين، لا يأتون إلى المراكز التجارية من أجل التسوّق فقط، بل يأتون مع أبناء عائلاتهم وأصدقائهم طلبًا للترفيه والاستجمام أيضًا. ولكن، هنالك فرق

كشفت المقابلات الشفهية حقائق إضافية توضح طبيعة التفاعلات بشكل أكبر. رغم أن الفلسطينيين عبّروا عن إحساس كبير بالأمن نسبيًا في مجمّع المالحة التجاري، إلاّ أن غالبيتهم وصفوا زياراتهم إليه بأنها غير مريحة ومنفّرة. وكان السبب الرئيسي الذي ذكروه هو التجربة التي مرّوا بها أثناء التفتيشات الأمنيّة عند مدخل المجمّع، وهو ما اعتبروه عاملاً إقصائيًا وينطوي على تمييز ضدّهم وعداء تجاههم، مما جعلهم يشعرون أنهم غرباء وغير مرغوب فيهم. في الوقت نفسه.

رئيسي؛ فبالنسبة إلى الفلسطينيين يشكل عدم وجود بنية تحتية عصرية تجارية – مادية في القدس الشرقية الدافع المحرك الأكبر الكامن خلف أفضلياتهم المتعلقة باستهلاك الحيّز. وبالنسبة إلى الفلسطينيين من أبناء الطبقة الوسطى فإن خيار الذهاب إلى المجمّعات التجارية في القدس الغربية ليس خيارًا، في الواقع؛ لأنه يعبّر بالأحرى عن اللامساواة والتخلّف في القدس الشرقية، وعن تزايد اعتماد الفلسطينيين على القدس الغربية.

صرّح الزائرون في كلا الموقعين أنهم شعروا بأنهم آمنون لدرجة عالية. وبيّن الاستطلاع أن معدل درجة «الشعور بالأمن» في المالحة كان ٤ لدى الفلسطينيين، و٤,٤ لدى الإسرائيليين (في سلّم درجات من ١ إلى ٥). أمّا في مجمّع ماميلا التجاري فقد كانت النتيجة ٤,٥ و ٤,٤ على التوالي. وحتى حين سُئل الأشخاص الذين تمّت مقابلتهم سؤالاً مباشرًا: هل يؤثر على شعورهم بالأمن وجود أشخاص من الجماعة الخصم، كانت النتيجة سلبية. ولكن حين سُئلوا عن موقفهم من واقع تسوّق اليهود والعرب معًا في المجمّع التجاري، وُجدت فجوة كبيرة بين نتائج المجمّعين. ففي المالحة اعتبر ثلث الإسرائيليين أن وجود الفلسطينيين هناك أمر سلبي، ورأى ٣٠٪ منهم أن الأمر إيجابي. أمّا في ماميلا فقد عبّر ٥٦٪ من المجيبين الإسرائيليين عن موقف إيجابي تجاه وجود الفلسطينيين في هذا المجمّع، في حين عبّر فقط ٢٢٪ من الإسرائيليين عن معارضتهم لوجود الفلسطينيين هناك. أمّا بالنسبة لمواقف الزوار الفلسطينيين، ففي الحالتين عبّروا عن مواقف إيجابية جدًا تجاه اختلاط الفئتين السكانيتين – ٩٠٪ من زوّار مجمّع المالحة، و ٨٢٪ من زوّار مجمّع ماميلا.

كشفت المقابلات الشفهية حقائق إضافية توضح طبيعة التفاعلات بشكل أكبر. رغم أن الفلسطينيين عبّروا عن إحساس كبير بالأمن نسبيًا في مجمّع المالحة التجاري، إلاّ أن غالبيتهم وصفوا زياراتهم إليه بأنها غير مريحة ومنفّرة. وكان السبب الرئيسي الذي ذكروه هو التجربة التي مرّوا بها أثناء التفتيشات الأمنيّة عند مدخل المجمّع، وهو ما اعتبروه عاملاً إقصائيًا وينطوي على تمييز ضدّهم وعداء تجاههم، مما جعلهم يشعرون أنهم غرباء وغير مرغوب فيهم. في الوقت نفسه عبّر مجيبون إسرائيليون كثيرون في المالحة عن الغضب والعداء تجاه وجود الفلسطينيين هناك، واعتبروا ذلك تطفلاً وتهديدًا غير لائق. وفي المقابل، اختلفت تمامًا نتائج المقابلات التي أجريت في مجمّع ماميلا. فقد وصف أحد الزبائن الفلسطينيين مجمّع ماميلا بأنه «أفضل مجمّعات القدس التجارية، بالنسبة للعرب». لم يكن ذلك عرَضًا، فقد وصف الكثير من الفلسطينيين الذين جرت مقابلتهم في ماميلا زيارتهم للمكان بأنها سارّة ومريحة، وأن المكان ذو جوّ شامل وكوزموبوليتيّ.

«الفجوة بين الناس الذين يأتون إلى هنا ليست كبيرة. الأمر يجعلنا سويّة ويزيل الشعور بالآخرية (كونك إنسانًا آخر). أنت لا تشعر بالفرق ولا أحد يُلحق بك الأذى».

(مقابلة مع طالبين فلسطينيين في المدارس الثانوية، ماميلا)

تنطوي هذه الإجابات على نوع هوية شاملة يجري إنتاجها في مجمّع تجاري من نمط مجمّع مانيلا، المعزز بحقيقة كونه موجودًا في مركز سياحي في القدس، بالقرب من بعض الفنادق والنزُلات الأكثر شعبية في المدينة. السياح الوافدون إلى القدس عليهم أن يمرّوا بشكل حتميّ تقريبًا في هذا الحيّ، مما يعني أن عدد السياح الأجانب في المجمّع يفوق أحيانًا عدد الزبائن المحليين. وكونك إسرائيليًا أو فلسطينيًا يصبح خيارًا آخر في هيكل الاستهلاك العَولمي هذا.

ثمّة جزئية أخرى مهمّة في هذه التجربة، وهي عدم وجود تفتيش أمني عند المدخل. هذا العامل – الذي يبدو في الظاهر «صغيرًا»

تنطوي هذه الإجابات على نوع من الهوية العالمية الشاملة التي يجري إنتاجها في مجمّع تجاري من طراز ماميلا. ويعزز ذلك حقيقة كون مجمّع ماميلا موجودًا في وسط المركز السياحي في القدس، بالقرب من بعض الفنادق والعديد من النزل الأكثر رواجًا في المدينة. وأي سائح يأتي إلى القدس سوف يمرّ بشكل حتمي تقريبًا عبر هذا الحي، ممّا يعني أن عدد السيّاح الأجانب يفوق أحيانًا عدد الزبائن المحليين في المجمّع. وكونك إسرائيليًا أو فلسطينيًا يصبح خيارًا آخر في هيكل الاستهلاك العالمي.

– ذكره الفلسطينيون كعامل مهمّ في اتخاذ قرارهم بالذهاب إلى مجمّع ماميلا وليس إلى مجمّع المالحة. علاوة على ذلك، كان مهمًا بالنسبة إليهم أن عربًا كثيرين يعملون في مجمّع ماميلا، في سلك البائعين، وأن العرب يأتون إلى هذا الموقع كمستخدَمين وكزبائن أيضًا. ولكن الحجّة الأكثر رواجًا لتفضيلهم مجمّع ماميلا تكمن في قربه من القدس الشرقية والبلدة القديمة ومنطقة الأعمال والمصالح المركزية العربية. وهو يعتبر بمثابة شُرفة على حافة المنطقة السكنية الفلسطينية، وفرصة للمشاهدة والمشاركة في منطقة أجنبية مجاورة ولا تتطلّب الذهاب بعيدًا. وفي الوقت نفسه أبدى الإسرائيليون الذي تمّت مقابلتهم مستوىً عاليًا من التسامح تجاه وجود الفلسطينيين، ولم يعتبروا هذا الوجود تطفّلاً عليهم أو تهديدًا لهم. وبخلاف مجمّع المالحة، الذي اعتبره المجيبون من روّاده الإسرائيليين منطقة يهودية – إسرائيلية بالكامل، اعتُبر مجمّع ماميلا من قِبَل المجيبين من روّاده بأنه مكان حدودي ذو صفة دولية، وأن زوّاره متنوعون. موقع مجمّع ماميلا في المحيط السياحي الرئيسي في البلدة القديمة وخارجها، يجعله مكانًا مقصودًا للسيّاح بذاته ولذاته، حتى بالنسبة للمقدسيين الإسرائيليين المحليين. وماميلا، بالنسبة إليهم، ليس ساحة البيت بل هو منطقة هجينة. وقد عبّر عن هذه الفكرة عيدو، وهو مدير مقهى في ماميلا:

مول المالحة: التسوّق لا دين له!

«المكان مثل بالون طافٍ. ليس مرتبطًا بأيّ شيء. هناك سيّاح كثيرون، والشعور هو كأنك خارج البلاد...».

(مقابلة مع ع. هليفي، حي ماميلا).

تنطوي هذه الإجابات على نوع من الهوية العالمية الشاملة التي يجري إنتاجها في مجمّع تجاري من طراز ماميلا. ويعزز ذلك حقيقة كون مجمّع ماميلا موجودًا في وسط المركز السياحي في القدس، بالقرب من بعض الفنادق والعديد من النزل الأكثر رواجًا في المدينة. وأي سائح يأتي إلى القدس سوف يمرّ بشكل حتمي تقريبًا عبر هذا الحي، ممّا يعني أن عدد السيّاح الأجانب يفوق أحيانًا عدد الزبائن المحليين في المجمّع. وكونك إسرائيليًا أو فلسطينيًا يصبح خيارًا آخر في هيكل الاستهلاك العالمي. هذا الجو المختلط في ماميلا، والارتفاع التدريجي في عدد الزبائن الفلسطينيين، أصبحا جزءًا من استراتيجية البيع غير الرسمية الخاصة به. وفي اعتراف مُدهش، يكشف شموئيل بن موشه، المدير التنفيذي لشركة «ألروف» (Alrov) الإسرائيلية، مالكة مجمّع ماميلا، عن دوره في التركيب الاجتماعي لمجمّع ماميلا:

«لديّ عمال عرب كثيرون في الحوانيت. الأمر مقصود. لأنني أريد أن يشعر العرب الذين يأتون إلى الحوانيت بالراحة عندما يخدمهم واحد منهم. وكان الأمر ناجحًا بشكل هائل، وقد انعكس ذلك ليس فقط في المبيعات وإنما في حقيقة عدم حدوث تخريب متعمّد للمتلكات العامّة أو أي نوع من التدمير أو ما شابه ذلك؛ لأن الأطفال (العرب) الهائجون حين يرون أن مديرًا أو بائعًا عربيًا موجود في المحل التجاري لا يُحدثون الأضرار له. فهم يشعرون بأن المحل مُلك لهم أيضًا. هم يحترموننا ونحن نحترمهم، والأمر جميل».

(مقابلة مع شموئيل بن موشه، المدير التنفيذي الرئيسي لمجمّع ماميلا، التابع لشركة «ألروف» الإسرائيلية).

تشير نتائج البحث إلى أن الحيّزات التجارية الخاصة في القدس الغربية تعمل كحيّزات مشتركة لاعُنفية مؤقتة. فلسطينيون كثيرون يريدون «عبور الحدود» للوصول إليها، بالرغم من الهموم المادّية والعاطفية. وفي فعلهم هذا هم يفضّلون حاجاتهم المادّية الفردية على استيائهم من الاحتلال الإسرائيلي وتجلّياته في حياتهم اليومية. والسؤال الذي يبرز هو: هل حضورهم المتزايد في هذه الحيّزات هو فقط دلالة على اعتمادهم على القدس الغربية والتمييز الذي يواجهونه، وبذلك هم يكرّرون مبنى قوّة الاحتلال الإسرائيلي؟ أم أن ذلك يمثل شكلاً جديدًا من التعايش والاستصلاح السلمي للحيّز، الذي هو في صُلب ممارسات الحياة اليومية؟

تُظهر هذه الشهادة الطريقة التي بواسطتها أدت خصخصة الحيّزات العامّة في القدس إلى سياسات واستراتيجيات تسويق محلّي مستقلّ دعّمت في الواقع الاختلاط الاجتماعي في القدس. آلية الشعور بالانتماء في الحيّز المدينيّ تعمل بأيدي العاملين التجاريين أيضًا في ظلّ النزاع العميق. خلال أعمال الشغب في صيف عام ٢٠١٤ استمرّ الزبائن الفلسطينيون في الذهاب إلى جادة ماميلا (بن موشه، ٢٠١٤)، في حين حرّموا الذهاب إلى مجمّع المالحة التجاري (بندامسكي ٢٠١٤، أفراهامي ٢٠١٤). هذه الحقيقة تُظهر التحوّل في الحيّز الاجتماعي في ماميلا. كلا الموقعين هما حيّزان عامّان إسرائيليّان تجاريّان، ولكن الظروف الخاصة والهوية الجغرافية التي كانت تتطور تدريجيًا في ماميلا ولّدت بوضوح حيّز تماس مُستدام.

خاتمة

تشير نتائج البحث إلى أن الحيّزات التجارية الخاصة في القدس الغربية تعمل كحيّزات مشتركة لاعُنفية مؤقتة. فلسطينيون كثيرون يريدون «عبور الحدود» للوصول إليها، بالرغم من الهموم المادّية والعاطفية. وفي فعلهم هذا هم يفضّلون حاجاتهم المادّية الفردية على استيائهم من الاحتلال الإسرائيلي وتجلّياته في حياتهم اليومية. والسؤال الذي يبرز هو: هل حضورهم المتزايد في هذه الحيّزات هو فقط دلالة على اعتمادهم على القدس الغربية والتمييز الذي يواجهونه، وبذلك هم يكرّرون مبنى قوّة الاحتلال الإسرائيلي؟ أم أن ذلك يمثل شكلاً جديدًا من التعايش والاستصلاح السلمي للحيّز، الذي هو في صُلب ممارسات الحياة اليومية؟

وفي كلتا الحالتين تجعل النيوليبرالية الأمور أكثر تعقيدًا في القدس. وحين تستحوذ النيوليبرالية المدينية على زمام الأمور في مدينة يسودها الصراع القومي، فإن مجرى الحركة الحيّزية والنشاطات التي تبني التفاعلات اليومية بين الفئات السكانية المتنازعة تنتقل جزئيًا إلى حيّزات تجارية جرت خصخصتها مؤخرًا. في السابق، حدثت هذه التفاعلات غالبًا في حيّزات مدينية تميزت بثقافة خاصة وهوية منفردة، ومراقبة بشكل فضفاض من قبل شرطة الدولة، ومندمجة في المشهد المدينيّ المحلي. والآن، تحدث هذه التفاعلات أيضًا في مجمّعات مملوكة لأشخاص يجري تطويرها على طول خطوط ثقافة الاستهلاك العالمية؛ وهي حيّزات تحرسها شركات أمن خاصة وتديرها من أعلاها إلى أسفلها شركات خاصة تتحكم في محتوى وكمية ونوعية المصالح والأعمال والخدمات التي يشتمل عليها المجمّع. هذا التحول، كان ولا يزال له تأثير ينتقص من الاستقرار ومن الديمقراطية المدينية. وفي سياق المدينة التي تشهد نزاعًا قوميًا، يعزز الحيّز المشترك النيوليبرالي التحولات الجديدة التي لها نماذج دولية. وبشكل مُدهش، فإن الصفات والخصائص نفسها التي دفعت الأبحاث إلى مدح حياة المدينة كما نعرفها، يمكن أن تكون هي نفسها التي تلطّف بعض العوامل التي تردع الفلسطينيين وترهبهم لدى عبور الحدود وهم يسعون إلى دخول القدس الغربية. طبيعة الاستهلاك العابرة للحدود الدولية، والنزعات الجماعية الخاصة بالتسوق، تعملان على إذابة الفروق المرئية بين الزائرين وتخلق بشكل مؤقت موطنًا مشتركًا يتميز بأفضليات ثقافية وعادات استجمام مشتركة. علاوة على ذلك، فإن خصخصة إدارة الحيّز العام والتحكم فيه تفضّل اعتبارات الربح على اعتبارات ذات علاقة بالهوية القومية. فالفلسطينيون المقدسيون الذين عادة ما يشعرون أنهم غير مرحّب فيهم في الحيزات الإسرائيلية المدينية، هم هنا، وبشكل مفاجئ، مطلوبون بل ومرغوب فيهم كزبائن؛ وهذا

الأمر بارز من خلال الحقيقة المدهشة وهي أن بعض رجال المبيعات اليهود في ماميلا قد تعلموا ويتعلمون جُملاً عديدة باللغة العربية لتسهيل اتصالهم بالزبائن الفلسطينيين.

وتُظهر الدراسة أن المكان الجيو- سياسي الخاص بكلّ من هذين الموقعين، في القدس، قد إدّى إلى نشوء هوية جغرافية خاصة على محور شرق – غرب المدينة. ورغم أن كلا الموقعين مصمّمان للزبائن الإسرائيليين، إلاّ أنهما يحتفظان بجاذبية كأماكن يقصدها أيضًا الفلسطينيون المقدسيون بهدف الاستهلاك الشعبي والاستجمام. يقع مجمّع المالحة التجاري وسط القدس الغربية؛ وهو محاط في الغالب بأحياء يهودية. بينما يقع مجمّع ماميلا التجاري على خط الالتحام، على الحدّ بين شرقي وغربي القدس؛ ولذلك فهو قريب جدًا من المناطق الفلسطينية. هذه الخصائص الجغرافية حاسمة بالنسبة لمدى الشعور بالأمن لدى الزائرين الفلسطينيين، وبالنسبة إلى مستوى التسامح لدى الزبائن الإسرائيليين المحليين. من ناحية أولى، قُرب ماميلا من المنطقة الفلسطينية يخفّف التوتر والخوف الذي يسبّبه وجود الجماعة الزائرة؛ وفي الوقت نفسه، يسمح للفئتين السكانيتين أن تستمتعا بالتماس بالآخريّة عن كثب ومع ذلك عن بُعد مسافة ما، رغم وجود الخوف وعدم الثقة. ليست المجمّعات التجارية التي هي غربية السمات في القدس الغربية فقط حيّزًا عمليًا للاستهلاك؛ وإنما هي أيضًا حيّز للاستجمام، وفرصة للانكشاف على الفئة السكانية الخصم.

رومان وفينغرود (١٩٩١) قد حدّدا النشاط الاقتصادي، واعتبراه نموذجَ التفاعل الأقوى بين الفئات السكانية المتنازعة في مدينة يسودها الصراع، وكذلك نموذج الارتباط الأخير الذي ينقطع في حالة التصعيد العنيف، والنموذج الأول الذي يُعاد ربطه لاحقًا. والتجارة والاستهلاك يُعتبَران حاجات براغماتية وغير شخصية، وهما قادرتان على تجاوز الهُويات السياسية والاجتماعية. وحيّزات التماس التجاري في مدن النزاع النيوليبرالية تكرّر وكذلك تُضعف مبنى القوة في مدينة يسودها النزاع؛ وهكذا توفر فرصًا جديدة لفهم نزعات الاندماج ونماذج التفاعل في ظلّ ظروف صراع مدينيّ عنيف.

[مترجم عن العبرية. ترجمة محمد كيّال]

المصادر:

Allport, G. W. (1960). Personality and social encounter: Selected essays. Oxford, England: Beacon.

Avrahami G. (2014), CEO Jerusalem (Malcha) Mall. Personal interview. 28 December.

Ben Moshe, S. (2014) CEO Alrov Mammilla. Personal interview. 14, November.

Boal, F. W. (1996). Integration and division: Sharing and segregating in Belfast. Planning Practice and Research, 11(2): 151158-.

Boal, F. W. (1999). From undivided cities to undivided cities: Assimilation to ethnic cleansing. Housing studies, 14(5): 585600-.

Bollens, S. A. (1998). Urban planning amidst ethnic conflict: Jerusalem and Johannesburg. Urban Studies, 35(4): 729750-.

Bollens, S. A. (2000). On narrow ground: Urban policy and ethnic conflict in Jerusalem and Belfast. Albany, NY: State University of New York Press.

Bollens, S. A. (2008). Urbanism, political uncertainty, and democratization. Urban Studies, 45(51289-1255 :(6-.

Bollens, S. A. (2009). Comparative research on urban political conflict: Policy amidst polarization. The Open Urban Studies Journal, 2: 117-.

Dumper, M. (1997). The politics of Jerusalem since 1967, New York: Columbia University Press.

Harvey, D. (2012). Rebel Cities: From the Right to the city to urban revolution. London & New York: Verso.

Harvey, D.(2005). A brief history of neoliberalism. Oxford: Oxford university press.

Low, S. & N. Smith (Ed.) (2006). The politics of public space. New York & London: Routledge.

Mcdonald, D. (2008). World City Syndrome: Neoliberalism and Inequality in Cape Town. New York: Routledge.

Peach, C. (2000). The consequences of segregation, In: F.W. Boal, (Ed.). Ethnicity and housing: Accommodating difference, (pp. 1023-). Aldershot: Ashgate

Romann, M. & Weingrod, A. (1991). Living together separately: Arabs and Jews in contemporary Jerusalem. Princeton: Princeton university press

Pundaminsky, K. (2014). The campaign proposal, the rejection and the astonishment. Yedioth Yerushalayim. 12 December.

Sassen, S. (1999). Globalization and its discontents: essays on the new mobility of people and money. New York: The new press.

Sassen, S. (2006). Cities in a world economy (3rd edition). Thousands Oaks: Pine Forge Press.

Smith, N. (2002). "New Globalism, New Urbanism: Gentrification as Global Urban Strategy", Antipode 34 (3): 434–57.

Yacobi H. & Pullan W. (2014): The Geopolitics of Neighborhood: Jerusalem's Colonial Space Revisited, Geopolitics 9(3), 514539-.

Yacobi, H. (2012). God, globalization, and geopolitics: on West Jerusalem's gated communities. Environment and Planning A, 44(11.) 2705 – 2720.

Yiftachel, O. and H. Yacobi. (2002a). Planning a Bi-National Capital: Should Jerusalem Remain United?. Geoforum 33, 137145-.

Yiftachel, O. & Yacobi, H. (2002b). A shared city of peace? Proposal for a capital region for Israel/Palestine. In: M. Sorkin (Ed.), The next Jerusalem (pp. 112124-). New York: Mancelli Press.

Yiftachel, O. & Yacobi, H. (2004). Urban ethnocracy: Ethnicization and the production of space in an Israeli mixed city. Environment and Planning D: Society and Space, 21(6): 673693-.